STUDIES IN ARABIC NARRATOLOGY
PRINT ISSN: 2676-7740 eISSN:2717-0179
www.san.khu.ac.ir

Fall & Wnter (2022-2023), Vol. 4, No.7, pp. 177-201

Received: 2/12/2022 Accepted: 20/2/2023

Mufid al-Wahsh's Childhood and Family Relations Impact on His Behavior: A Psychological Study

Hossein Mohtadi[1*] , *Rodayna Jaber*[2], *& Khalil Aboujahjah*[3]

Abstract

The End of a Brave Man addresses the issue of childhood and its effect on the individual's personality, considering the great impact that harsh upbringing has on the psyche of children, in addition to the impact of society and peers on them. The significance of studying the novel from a psychological point of view is twofold: on the one hand, the author of the novel is one of the leaders of contemporary Arab novelists and, on the other hand, the focus of the story is on the importance of childhood in building a person's character. Accordingly, this study pinpoints the impact of childhood on Mufid al-Wahsh, the protagonist of the novel. The main question that this research addresses is that what are the most important environmental factors affecting the development of Mofid al-Wahsh's personality? To answer this question, the study examines the role of parents in forming a child's personality, along with the role of teachers, peers, and village people as members of society. It finds that the novel portrays a picture of an abused child who is subject to sufferings and pains as imposed by society. He experiences the first layer of abuse from the family due to emotional disorder as his kind mother cannot make up for his father's unforgiveness. The second environmental factor is school where he comes to hate knowledge as he is fired from classes. Also, his peers spark misery and rebellion in him. Finally, the people of the village torture him regularly. Mofid al-Wahsh's personality represents the character of numerous men who lived in such a repressive upbringing environment. The protagonist's conduct is indeed is a

1. Corresponding Author:Associate Professor of Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr, Iran; *mohtadi@pgu.ac.ir*
2. Master of Arabic Language and Literature, Lebanon University; *Rod.jaberisi@gmail.com*
3. Professor of Arabic language and literature, Laban University; *Kaboujahjah@ul.edu.lb*

© The Author(s).
Publisher: Faculty of Literature & Humanities, University of Kharazmi and Iranian Association of Arabic Language & Literature.

natural reflection of the upbringing he received, an upbringing that is based on the oppression of the father in the patriarchal Eastern society, a society where mothers have no role but to cry.

Keywords**:** the novel, psychological criticism, The End of a Brave Man, Hanna Mina

دراسات في السردانية العربية
الرقم الدولي الموحد للطباعة: ٧٧٤٠-٢٦٧٦
الرقم الإلكتروني الدولي الموحد: ٠١٧٩-٢٧١٧

أثر طفولة مفيد الوحش والعلاقات الأسريّة في سلوكه في رواية «نهاية رجل شجاع» للكاتب السّوريّ حنّا مينه دراسة نفسيّة تحليليّة

حسين مهتدي[1*] ، ردينة جابر[2] ، خليل أبوجهجه[3]

الخريف و الشتاء (٢٠٢٢-٢٠٢٣م)، السنة الرابعة ، العدد٧، صص. ٢٠١-١٧٧

وصول: ٢٠١/٩/١١
پذيرش: ٢٠١/١٢/١

الملخص

إنّ رواية "**نهاية رجل شجاع**"، تبدو مسرحاً خصباً للبحث في موضوع الطفولة وأثرها في شخصيّة الفرد، نظراً لما تتركه التربية القاسية من عظيم أثر في نفوس الأبناء، فضلًا عن تأثير المجتمع والأتراب في سلوكيّات الأفراد. إنّ تناول رواية «نهاية رجل شجاع» للكاتب «حنّا مينه» في دراسة نفسيّة، موضوعٌ له أهميّته الخاصّة، لأنّ الكاتب من أعمدة الرّواية العربيّة المعاصرة، وركّزت الرواية على أهميّة حياة الطفل في بناء شخصيّة الرّجل. لذلك ستقوم هذه المقالة على كشف تأثير الطّفولة الّتي عاشها مفيد الوحش – بطل رواية نهاية رجل شجاع– في شخصيّته رجلًا. تعالج هذه المقالة دور الأب والأمّ في الوصول إلى الهويّة الشّخصيّة للبطل ودور المعلّم والأتراب وأهل الضّيعة، كأصحاب المجتمع، في رسم الملامح الشّخصيّة للطّفل. وما نستنتجه من هذه مقالة: تجسّد «نهاية رجل شجاع» صورة الطفل المعنّف الّذي تلقّى القسوة في مجتمعه، بدءًا بالأسرة حيث الاختلال العاطفيّ، فلم تستطعِ الأمّ الحنون أن تعوّض بلطفها وتضحياتها قسوة الوالد وعدم تسامحه، ثمّ في المدرسة حيث المعلّم الذي نفّره من الصّفّ وكرّهه العلم، إلى أتراب عزفوا بقيثارته لحن الشّقاء والشّغب، وأخيراً مع أهل الضّيعة حيث المختار الظّالم، والمتبارين في عرض اقتراحاتهم لتعذيبه. شخصيّة «مفيد الوحش» الّتي تعبّر عن شخصيّة رجال كثر عاشوا في أجواء مماثلة، وتلقّوا تربيةً قمعيّةً، تركت انعكاساتها السلبيّة في المجتمع. إنّ سلوك مفيد الطفل –بطل الرواية– الباحث دوماً عن المشاكل، ردّ فعل طبيعيّ للتّربية الّتي تلقّاها، والقائمة على ظلم الوالد في ظلّ مجتمع شرقيّ ذكوريّ، يلعب فيه الرجل الدور البالغ، وفي كنف أمّ مهيضة الجناح، لا ثقل لكلمتها ولا مجال لبثّها سوى

١. الكاتب المسؤول: أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة خليجفارس، بوشهر، إيران؛ *mohtadi@pgu.ac.ir*
٢. متخرجة مرحلة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بالجامعة اللبنانية، لبنان *Rod.jaberisi@gmail.com*
٣. أستاذ في اللغة العربية وآدابها بالجامعة اللبنانية، لبنان *Kaboujahjah@ul.edu.lb*

cc BY NC
الناشر: جامعة الخوارزمي بالتعاون مع الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها
حقوق التأليف والنشر© المؤلفون

عبر دموع جيّاشة. بما أنّ هذا البحث يهدف إلى دراسة أثر الطّفولة في تكوين شخصيّة الفرد، كان لا بدّ من اللّجوء إلى المنهج النفسيّ-التحليلي لإنجاز الدراسة.

الكلمات الدليلية: الرواية، النقد النفسيّ، نهاية رجل شجاع، حنّا مينه.

١. المقدمة

تُعدّ الطّفولة منطلق الحياة النفسية في حياة الفرد، ولمّا كانت الطّفولة تتأثّر بكلّ ما يحيط بها ويتعلّق بها، من علاقة الطفل بوالديه في الدرجة الأولى، ثمّ إخوته وأترابه وأبناء المجتمع في الدرجة الثانية، فكانت شخصيّة (مفيد الوحش) انعكاساً لا مآخذ عليه، نتيجة الظّروف القاسية الّتي عايشها. فالوالد ظالم مع خطأ الأولاد وعدم خطئهم، لأنّ المجتمع الشّرقيّ يفرض ذلك كمرادف حقّ لصفة الرّجولة، أمّا الأمّ فهي دوماً خالية الوفاض، لا قيمة لملاحظاتها، وليس بيدها من حيلةٍ سوى دمعة تذرفها علناً أو بالخفاء، حين تستدعي الحاجة، تطلق لها العنان كلّما قام ابنها بعملٍ تطبّل له القرية وتزمّر. هذه التّربية القائمة على التّعنيف وكسر الشخصية، تعدّ تدميريّة وغير بنّاءة، وفقاً لكثير من الدراسات النفسية الّتي تناولت موضوع التربية، والبيئة السليمة لتنشئة الطّفولة السليمة. علاقة الحاكم بالمحكوم، والرئيس بالمرؤوس، من العلاقات التي تستدعي تساؤلات كثيرةً. فمن ناحيةٍ نظريّةٍ ينبغي أن تُبنى هذه العلاقة على أسس العدل والمساواة، والحفاظ على المصلحة العامّة. ومع ذلك، فإنّ الهوّة القائمة بين طرفَين غير متساويَين تستثير شغفاً بالعنف، ورغبةً في التسلّط (طنوس، ٢٠٠٣: ٨٦٠). «**نهاية رجل شجاع**» رواية ترسم ملامح حياة الفرد وما يحيط بها من تقلّبات ومشاكل، ومحاولة لدرس شخصيّة الفرد، انطلاقاً من الطفولة التي تمثّل الحجر الأساس في حياة الفرد، مع ما يحيط بها من أزمات ومشاكل، تترك بصماتها العريضة في مسار الأيّام. إنّ أكثر ما يلفت النظر في «نهاية رجل شجاع»، حجم الألم والعذاب الذي تعرّض له (مفيد)، أي بطل الرواية، وتجلّده وصبره لتحمّل ذلك، وتنقّله الدائم بين المراتع والأماكن بحثاً عن مرقد تسكن فيه سريرته ويهدأ فيه روعه، حاملاً معه ذكرياته الجميلة والأليمة، فكانت زاداً يوميّاً لانطلاقة كلّ فجر جديد.

تدرس هذه المقالة «دور طفولة مفيد الوحش والعلاقات الأسريّة في سلوكه». المبحث الأوّل جاء بعنوان «دور الأب في الوصول إلى الهويّة الشخصيّة للبطل»، ويعالج أوّلاً علاقة الأب بالأبناء وفقدان التواصل؛ ويعالج ثانيّاً عنفَ الوالد وتمرّد الابن. أمّا المبحث الثاني الذي ورد بعنوان «دور الأمّ المساعدة في بناء ذات البطل»: الأمّ في الحياة النفسيّة للطّفل، ملاذ وحضن دافئ والأمّ في ذاكرة مفيد الرجل، بين الذكرى والحلم. المبحث الثالث «دور المجتمع في رسم الملامح الشخصيّة للطفل»، فصّلَ الحديث حول دور الأتراب في بناء الشخصيّة، والمعلّم وأثره في تفاقم الحالة سوءاً، أخيرًا أهل الضيعة، ذنب الحمار وعقوبة مدى الحياة.

١-١. أسئلة البحث

السّؤال الذي يطرح نفسَه، ويكوّن إشكاليّة البحث التي ستتمّ معالجتها في هذه المقالة:

كيف يمكن عدُّ دور الأمّ والأب في الأسرة، المنطلقَ الرئيس في بناء الفرد؟

فما هي أبرز جذور العقد التي تنبت في حياة بطل الرواية «مفيد الوحش»؟

ما هو دور المجتمع في رسم الملامح الشخصيّة لمفيد الوحش؟

١-٢. منهجيّة البحث

بما أنّ هذا البحث يهدف إلى دراسة أثر الطفولة في تكوين شخصيّة الفرد، كان لا بدّ من اللّجوء إلى المنهج النفسيّ - التحليلي لإنجاز الدراسة، مع الِاستعانة بالمنهج الِاجتماعي. تجتمع التعريفات التي تحدّ المنهج على أنّه مسلك عقلاني يؤدّي إلى غاية، أو يوصل إلى حقيقة، أو يحقّق معرفة. فالمنهج النفسيّ الاجتماعي طريقٌ، من شأنه أن يوصل سالكَه إلى نهاية معيّنة بعد أن ينطلق من بداية معيّنة، ويمرّ في مراحل مختلفة، كما أنّه مجموعة أساليب نتوخّى بوساطته الوصول إلى نتائج معيّنة.

٢. خلفية البحث

هناك دراسة تعالج موضوع علم النفس الأدبي بعنوان «علم النفس الأدبي» لأنور عبدالحميد الموسى (٢٠١١م)، تحدّث الكاتب فيه عن الموضوعات المختلفة في علم النفس وعلاقتها بالموضوعات الأدبيّة ومن خلالها أشار إلى آراء علماء النفس.

مقال ورد فيه آراء لبعض الأفراد من المجتمع حول كتابة حنّا مينه لرواية **نهاية رجل شجاع**، نُشر في صحيفة **العرب** القطريّة بتاريخ ٢٠١٣/٩/٢٨، العدد ٩٣٣٤، ص١٧، بعنوان «بين قارئ وكتاب «**نهاية رجل شجاع**»، كان بعض هذه الآراء إيجابيّة، وبعضها سلبيّة وقد عبّر أحدهم عن عدم إعجابه بترتيب الأحداث، قائلًا: «فقد بدا ضعيفاً، أشخاص يظهرون فجأة ويختفون من دون أن يدعموا القصّة، النهاية غير موفّقة أبدًا»، ورأى آخرون بأنّ الرواية «من الكتب النادرة التي لم أستطع تركها حتى الانتهاء من قراءتها. ملحمة عن القهر الاجتماعيّ والفقر والذلّ والجهل التي تُفقد الإنسان إنسانيّته وتحوّله إلى حيوان، أو بالأحرى إلى وحش لا أمل له في استرجاع إنسانيّته إلّا من طريق التدمير الذاتيّ والانتحار»، ورأى ثالث «رواية المشرّدين لا يتقنها إلّا حنّا مينه. أكثر ما أعجبني إصرار (مفيد) على حبّه للبيبة، وإصرار لبيبة على حبّها لـ (مفيد). رغم ضخامة الرواية إلّا أنّ لغتها سلسة وقريبة إلى القلب ومشبعة بالتّشويق والمتعة».

مقال عن كتابة حنّا مينه الروائيّة، نُشر في جريدة **السفير** تاريخ المقال: ٢٠١٤/٢/٧، بعنوان «برازخ العالم الروائيّ لحنّا مينه» كتبه نبيل سليمان، يقدّم المقال ملخّصاً لكتابات مينا وقد قسّم عالمَ رواياته بين برزخ الغابة وبرزخ المرأة.

مقال كتبه حسام يوسف في جريدة **السفير** بتاريخ ٢٠١٤/٢/٧، بعنوان «مغامرة سيناريو «نهاية رجل شجاع»»، مشيراً إلى أبرز النقاط في كتابة الرواية معتمداً على بعض المقابلات التي أُجريت مع مينا، معبّرًا عن معاناة الكاتب في طفولته،

وشخصيّته الواضحة التي لا تخجل من التّعبير عن حالة الفقر والعوز التي عايشها الكاتب طويلاً.

مقالٌ كتبه بشّار عباس في جريدة **السفير** بعنوان «حنّا نموذج لإشكالية الرواية السورية مع السينما»، بتاريخ ۲۰۱٤/۲/۷، مقارناً العمل الروائيّ لمينا بالنّتاج الروائيّ العالمي، ودور الرواية في العمل السينمائي.

مقالٌ كتبه علي أصغر روانشاد و مليحة متوسل الحق في مؤتمر «**كنفرانس پژوهش‌های نوین و مدیریت دانش در علوم انسانی**»، ١٣٩٥ ش بعنوان «نگاهی به مضامین سیاسی و اقتصادی در رمان نهایه رجل شجاع»؛ تحدّث الكاتبان في مقالهما عن الإستعمار وأثره في المشكلات الاقتصادية ولم يتحدّثا عن مفيد الوحش.

رسالة تقدمت بها مليحة متوسل الحق لنيل درجة الماجستير بجامعة يزد ١٣٩٤ ش بعنوان «بررسی و تحلیل رمان «نهایه رجل شجاع»؛ تحدّثت الكاتبة فيها عن عناصر الرواية ومضامينها كالفقر، والسرقة، والاستعمار، والمرأة، والعشق والزواج. ولم تتطرق إلى موضوع **أثر طفولة مفيد الوحش والعلاقات الأسريّة في سلوكه**.

مع الإشارة هنا، إلى غياب الدراسات النقديّة الموسّعة والأكاديميّة حول رواية «**نهاية رجل شجاع**»، فضلاً عن عدم دراستها في باب «أثر الطفولة في بناء شخصيّة الفرد» دراسةً نفسيّة.

٣. لمحة عن حياة حنّا مينه

وُلِدَ حنّا مينه عام ١٩٢٤ في مدينة اللاذقية، وعمل تحت ضغط الفقر في مهن كثيرة، من حمّال في المرفأ إلى صبيّ حلّاق، إلى صحافيّ. لم يدخل أيّ مدرسة بعد التحصيل الابتدائي، وبدأ الكتابة منذ عام ١٩٤٢، وكتب قصصاً قصيرة في صحف ومجلات سورية ولبنانية، وانتقل عام ١٩٤٧ من اللاذقية، حيث كان يعمل حلاقاً، إلى دمشق وعمل في الصحافة، وكان من مؤسسي رابطة الكتّاب السوريين عام ١٩٥١. منح حنّا مينه جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية في حقل القصة والرواية والمسرحية الدورة الأولى ١٩٨٨ ـ 1989، على مجموع أعماله الروائية مع التنويه بروايتيه «الشمس في يوم غائم»، و«بقايا صور»، لما تحققه الأولى من تطور في شكل الرواية، ومن مزج الواقع بالرمز والأسطورة، والذاتي بالموضوعي والفطري بالعقلاني، ولما تحققه الثانية من تطور في قوالب السيرة الذاتية، وجعلها في صورة رواية محكمة البناء. حصر (حنّا مينه) روايته «نهاية رجل شجاع» بشخص (مفيد) فجعله بطلًا لروايته، إلّا أنّ القصّة بدلالاتها وتفاصيلها تُعدّ بابًا من أبواب الدراسة النفسيّة التي تدفع بالطفل إلى التفلّت من قيود أسرته ومجتمعه، والتّفاصيل الصغيرة التي سردها الروائيّ بدقّةٍ بالغةٍ تحمل في كلّ صفحاتها مفتاحاً يبدّد نشوء جيل عنيف مشاكس.

٤. موجز عن رواية «نهاية رجل شجاع»

"**نهاية رجل شجاع**" رواية من ٤٠٧ صفحات، صدرت في نسختها الأولى في العام ١٩٨٩. عن دار الآداب، وأعيد نسخها أكثر من أربع مرّات، تمّ تمثيل قصّة الرواية في مسلسل سوري، حظى بإعجاب كبير لدى المشاهدين. القصة تتحدّث

عن حياة شاب يسمّى «مفيد الوحش» من فترة صغره إلى فترة بلوغه. كان أباه مزارعاً بسيطاً وهو لا يهتمّ بأمور ولده وكان يضربه ليؤدّبه، ففي إحدى الأيام عندما كان «مفيد» ابن اثنى عشر سنةً، قطع ذنب حمار أحد المزارعين، وضربه أباه بالسّوط ولم يكتف بذلك، بل ضربه «فلقة» أمام أهالي القرية وهذا سبّب له ضرراً نفسياً، ابتلي بالعدواة الشديدة، ولهذا السبب فرّ من المنزل والقرية ولم يرجع إليهما بتاتاً.

عندما فرّ من المنزل، كان متشتّتًا بين الطبيعة والمزارع، أرشده قريب أمه «إبراهيم الشنكل» بنسيان الماضي، وترك البؤس، وبدء حياة جديدة في مكانٍ لا يعرفه أحد، وعندما هاجر إلى المدينة اجتمع بصديقه «عبدوش» وهو صبي فوضوي، فرّ أيضاً من قريته، وصار يعمل خبازاً، وساعد مفيد كثيراً على الثبوت ووجد له عملاً معه، حتى جاء يوم، و تشاجرا مع العدو الفرنسي في المقهى، وبسبب ذلك رُميا في السجن مدة سنتين و كان يبلغ مفيد حينها ثمانية عشر سنةً، السجن أدّب مفيداً أن يكون رجلاً حكيماً، خرج من الحبس، وراح يعمل في البحر مع «بكري الغطاس» بصيد الأسماك الكبيرة و الصغيرة، وحرس قوارب الصيادين ثم بعدها عمل في المرفأ، حدثت أحداث كثيرة في المرفأ، حصلت مغامرات وتحديات مع العجوز والمعلم رضا، جماعة حليش و الزقلوط وتحول مفيد من شخص عادي إلى شخص شرير يحسب له ألف حساب و يخاف منه ولكونه كان مختالا رجال المرفأ انقلبوا عليه لكي يدخلوه الحبس لمدة خمس سنوات. أصيب بالسّكر وبسبب قلة العناية والاهتمام قُطعت ساقيه عند اشتداد المرض ووقفت زوجته لبيبة إلى جانبه بصبر وثبوت. بعدها بان «ابراهيم شنكل» في حياته من جديد لكي يخرجه من حالة اليأس، إلى حالة الحياة والأمل، وساعده على إيجاد عمل كبائع للدخان، ثم للبضائع المحرّمة وبدى يحلم بامتلاك ساقيين صناعيّتَين وبدأ بتخيل المشي في الشوارع والنزول بالبحر، لكن صار ضحيةً لمشاكله القديمة في الميناء وظهر له عدوهُ بطحيش من حيث لا يحتسب، ووجه أنظار الشرطة إليه لكي يقطع رزقه وهكذا تبخّرت أحلامه لكي يقوم بقتل أحد الضّبّاط السّوريّين، وبعدها ينتحر مباشرةً.

٥. الإطار النّظريّ

علم نفس النّموّ فرع من فروع علم النّفس العام «يتناول بالدراسة والتحليل كلّ ما يطرأ على الكائن البشريّ منذ لحظة البويضة من نموّ وتغيّر، يهتمّ علم نفس النمو بدراسة مراحل النموّ المختلفة من الطّفولة حتّى الشّيخوخة دراسة علميّة يحدّد فيها معايير النّمو لكلّ مرحلة من المراحل العمريّة التي يمرّ بها الفرد، ومحاولة الكشف عن المقاييس العلميّة المختلفة الّتي تُعين على فهم خصائص النّمو بكلّ جوانبه» (سليم، ٢٠٠٢: ١٨-١٣) يدرس علم النّفس في علاقته بالأدب، مراحل التطوّر البشريّ وشخصيّة الإنسان. وخلال هذه الدراسة، يبحث عن تقدّمه أو ركوده في إقامة أوعدم إقامة العلاقة مع البيئة والأسرة. ويستكشف مراحل نموّه الكاملة من الطّفولة إلى منتصف العمر والشّيخوخة من وجهات نظر مختلفة (كريمي فرد وآخرون، ٢٠٢١: ١١٦). تتأثّر عمليّة النمو بعدة عوامل منها العوامل الوراثية والعوامل البيئيّة والعوامل البيولوجيّة. سنركّز في هذه المقالة على العوامل البيئيّة لكى نصل إلى نتيجة ملموسة. لا يغيب هنا ما أورده جان بياجيه حول التأثيرات في النموّ المعرفي للطّفل،

وتتلخّص بالنّضج البيولوجيّ الّذي يساهم في فهمه للعالم الّذي يحيط به، بالإضافة إلى دور الفعاليات في حياة الطفل وذلك من خلال الملاحظة والاستكشاف وترتيب المعلومات، كما يتأثّر الطفل بالخبرة الاجتماعيّة من خلال التّواصل الاجتماعيّ وتفاعله مع من حوله، أخيرًا يأتي دور الاتّزان وما يطرأ من تغيّرات على التّفكير، هذه العوامل غابت جملةً وتفصيلًا عن حياة بطل الرواية(مفيد الوحش)، لأنّ البيئة الّتي نشأ فيها بدءًا بالأسرة ثمّ المجتمع المحيط والمدرسة، لم تترك له من المساحة أيّة ركن أو مجال للتّطوّر والإنتاج الفكريّ السليم. وممّا يثير الاهتمام في الدراسة، البحث في الجوانب المرافقة للتّربية والتّنشئة الطّفوليّة، فالنموّ يشمل، بالإضافة إلى النّمو الجسديّ، النّمو المعرفيّ العقليّ، وهو الجانب الغائب عن حياة بطل الرّواية، فشغبه الدّائم في المدرسة غيّب عنه الكثير من المعرفة، فضلاً عن غياب المهارات اللّغويّة المدرسيّة، إذ حصر كلّ معارفه ومداركه وذكائه، في البحث عن أساليب جديدة للشّغب وإزعاج الآخرين، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على الحاجة إلى الاهتمام والرّفق. إلى جانب النّمو الجسديّ والنّمو المعرفي هناك النّمو النّفسيّ الفيزيولوجيّ، ويتغذّى المذكور آنفًا بالحضن الأسريّ الّذي تزرعه الأسرة المتكاتفة في نفوس صغارها، أمّا أحداث القصّة ومجرياتها، فقد بيّنت لنا أنّ هذا الجانب كان مغيّباً إلى حدٍّ بعيدٍ، ما ولّد في ذات (مفيد) صفة (الوحش). المجتمع أو الجانب الاجتماعيّ وما يعنيه ذلك من نمو عملية التّنشئة الاجتماعيّة والتّطبيع الاجتماعيّ للفرد في الأسرة والمدرسة والمجتمع وفي جماعة الرّفاق، والمعايير الاجتماعيّة، والأدوار الاجتماعيّة، والقيم الاجتماعيّة، ومن ثمّ التّفاعل الاجتماعيّ، نقاط انطلاق رئيسة في بناء شخصيّة ذلك الصّغير الّذي أُجبر على أن ينشأ في خضمّ هذه الظّروف. «ويُلاحظ أنّ مظاهر النّمو المختلفة متكاملة تنمو كوحدة متماسكة في انسجام وتوافق تامّ، وهي ترتبط فيما بينها ارتباطاً وظيفيّاً قويّاً، ولذلك يُلاحظ: إنّه إذا حدث اضطراب أو نقص أو شذوذ في أيّ مظهر من مظاهر النّمو ينعكس بدوره على المظاهر الأخرى» (عبدالمعطي وآخرون، ٢٠٠٠، ٣٧).

تتعدّد وتتنوّع البيئات إلّا أنّ البيئة الأسريّة الغنيّة بالمثيرات، ستكون عوناً في نموّ مواليدها، وبالعكس فإنّ اضطراب العلاقات الأسريّة، وتخلّي الوالدَين أو أحدهما أو كلاهما عن أدوارهما التربويّة، وتعرّض الأسرة للحوادث، كلّ هذا سيؤثّر سلباً على نموّ الأطفال والمراهقين، وكذلك على الذين هم في سنّ الرشد، وبشدّة على من هم في طور الشيخوخة (المصدر نفسه، ٢٠). «الأسرة هي أوّل مدرسة تربوية أخلاقية، ومركز لنشوء العادات واكتساب المعلومات والتجارب، والوسط الذي يتمّ خلاله بناء عقل الطفل ونفسيّته. والأسرة هي المسؤوليّة عن التوجيهات الصحيحة والخاطئة، والوالدات هما أوّل مَن يقوم بتعليم الطفل وتوجيهه وبناء أفكاره الأساسيّة» (القائمي، ١٩٩٤: ٢٤) كما أنّ للبيئة الاجتماعية دور كبير في تكوين الضمير الجمعيّ، فهي تساعد على إشباع حاجات الطفل النفسيّة. هذه البيئة غير الصحيّة تؤثّر سلباً على النمو في جميع المراحل لما تقدّمه من فرص الانحراف، وبما تحجبه من فرص لاكتساب المهارات، والتدريب على الأدوار الاجتماعيّة المطلوبة (سليم، ٢٠٠٢: ٢١).

في الوقت ذاته، فإنّ البيئة المدرسيّة التي تسودها سلطةٌ غاشمةٌ وطرق تدريسٍ قائمةٌ على التلقين، وعلاقاتٌ اجتماعيةٌ متوتّرةٌ، ومناهج منفصلةٌ عن الحياة، ستكون عائقاً في وجه النموّ، تُميت العقول وتُضعف الهمم، وتؤثّر البيئة المدرسيّة بدورها في

نمو الأطفال من خلال ما توفّره لهم من معارف وطرق في التفكير وطرق في حلّ المشكلات، وتفاعل اجتماعي وبناء صداقات وانتماء واكتساب مهارات حركية معقّدة وتعلم الأدوار التي يفرضها متغيّر الجنس واتقان مهارات القراءة والكتابة والحساب واكتساب سُلّم القيم والضبط والحس الأخلاقي والاتجاهات نحو الجماعات الاجتماعيّة والمؤسسات الاجتماعيّة وتحقيق الاستقلاليّة الشخصيّة (المصدر نفسه، ٢١). إنّ المدرسة عامل من عوامل التأثير في حاجات المراهق النفسيّة لا يقلّ أهمية عن عامل الأسرة والمعلمون يلعبون دوراً أساسيّاً في مساعدة المراهقين على تخطّي مشكلاتهم الذاتية والاجتماعيّة والمعلّم هو بديل الأب والأمّ باعتباره ممثّلًا للسلطة فهو عرضة لمشاعر الحبّ والكراهية والتقدير والانفعالات العدوانيّة يحملها المراهق في العادة إلى الكبار (المصدر نفسه، ٣٩٠).

لذا سنحاول في هذا البحث، عرض أثر الطفولة وبيئتها في بناء شخصيّة البطل «مفيد الوحش» ومعالجته في رواية نهاية رجل شجاع للروائيّ السوريّ حنّا مينه.

٦. دور الأب في الوصول إلى الهويّة الشخصيّة للبطل

ويقع في فكرتين، تتحدّث الأوّلى عن علاقة الوالد بابنه، وانعدام أواصر العلاقات العاطفيّة النبيلة بينهما، في حين تدرس الثانية عنف الوالد وتمرّد الابن.

٦-١. علاقة الأب بالابن وفقدان العاطفة والتّواصل

إنّ الأب يمثّل للابن الحبّ والأمان والطّمأنينة، إذ يتعرّف الصبي إلى الذكورة ومواصفاتها، من خلال مراقبته والده خلال سير حياته وتمثّله به، وتتوقّف هذه العلاقة ونوعيّتها على مواقف الأب من الطفل، ولا يقيم الطفل علاقة بالأب ما لم يقم هذا الأخير بالمبادرة، وهذه الروابط بين الأب والطفل تختلف من عائلةٍ إلى أخرى (سليم، ٢٠٠٢: ٢٤٠-٢٣٩). «إنّ الأب هو المسؤول عن بناء شخصية أولاده فيكون القدوة لهم في العمل، إنّه أوّل وجه سيتعرّف عليه الطفل في مهده بعد أمّه ومِن ثَمّ سينظر إليه فيما بعد أنّه المسؤول عن الأمن والنظام داخل الأسرة وأنّه الرازق والقوى الملاذ (القائمي، ١٩٩٤: ٣٠). في الحقيقة لا يقلّ دور الأب عن دور الأمّ بل قد يفوقه أحياناً ولوقار الأب وهيبته وأمره ونهيه دور بنّاء في الحياة.

وممّا يثير الفضول في هذا الإطار، البحث عن آليّة تربية الطفل، إذ كان الناس ينظرون في الماضي إلى المولود الجديد على أنّه عبارة عن جهاز هضمي، ولكن على العكس من ذلك، فهو غنيّ بالمهارات وقادر على اختبار المشاعر والأحاسيس.

هذه العلاقة الأسريّة لم تكن واضحة المعالم في طفولة (مفيدٍ) الأولى، لأنّه بدأ روايته وهو في سنّ الثانية عشرة، إلّا أنّ ما استرجعه عن علاقته بأسرته يبدو جليّ الملامح، فنلاحظ بوضوح علاقته المتوتّرة دوماً بوالده، ذي الطابع الحادّ، والقلب البعيد عن الرحمة والتسامح، إلى حدّ أنّه كان يعدّ والدُه سببَ سلوكه اللّاسويّ الذي يعيه دون القدرة على تغييره، ما يترك في نفسه آثارًا سلبيّةً يترجمها بالغضب حيناً، وبالتّعبير عن امتعاضه حينًا آخر «**لكنّ والدي لا يريدني تحت سقف بيته .. والدي**

يفسد كلّ شيء ويجعلني شرّيرًا، مصرّاً على إفساد كلّ شيء أيضاً، فهو يبغضني، وأنا بدوري أبغضه» (مينه، ٢٠٠٧: ٢٤٨).

لذا، إنّ الذي يميّز العلاقات بين الطفل ووالديه في هذه المرحلة المبكرة ويعطيها أهميّتها، هو المحتوى الانفعالي، ذلك أنّ هذه العلاقات ذاتها تقوم على أساس من الروابط الانفعاليّة التي تتميّز بمشاعر قويّة وتأثيرات متبادلة بين الطفل ووالديه (سليم، ٢٠٠٢: ١٦٤).

فغياب الألفة في العلاقة بين الأب والأبناء يولّد فراغاً كبيراً، يحاول الأولاد ملأه بتصرّفات صبيانيّة، بهدف لفت الانتباه بسبب غياب الموجّه والرّقيب «**ولعلّي قطعت ذنب الحمار انتقاماً من أبي**» (المصدر نفسه، ٢٤٧). هذه القسوة جعلته يتمرّد على كلّ ما يحيط به.

٦-٢. عنف الوالد وتمرّد الابن

شخصيّة الوالد تمثّل الرجل المتسلّط البيروقراطي، والّذي من طبيعته القدرة على النّفاق، والظّهور بمظهر المسؤول الطيّب الّذي يعمل للصّالح العامّ. إبراهيم المغضوب، والد (مفيد)، يحاول دائباً أن يبدو أمامَ أهل القرية بصورة الرجل الصالح، يسلّمهم ابنه ليتولّوا عقابه، حرصاً على المصلحة العامّة «**اضرب يا مختارنا، اضرب بكل قوّتك، لك اللّحم ولي العظم، حتى العظم لا أريده**» (مينه، ٢٠٠٧: ١٠). ذلك أن الإيحاء بصفات نبيلة تومئ، عند الساديّ إلى عكسها، لأن المريض يلجأ إلى تسويغ رغباته الاستبداديّة، فيضفي قناعاً مثاليّاً عليها، فيبالغ في معاملة ابنه بقسوة «**رفض والدي أن ينظر إليّ، اعتبر فعلتي جريمةً، قضيّةً تمسّ شرف العائلة، وهكذا تركني في أرضي وانصرف**» (المصدر نفسه، ١٣). علاقة تسلّط وخضوع أيضاً، هي العلاقة القائمة بين الوالد والولد في الرواية؛ وهذا ما تقوم عليه العلاقة الاجتماعيّة، إذ تُبنى على ثنائيّة القويّ والضّعيف، الكبير والصّغير، الذكيّ والغبيّ، حيث يتأمّن التفوّق عند الطرف الأقوى بأيّ ثمن . تنتهي حفلات التعذيب ويعود كلّ مشاهدٍ إلى بيته، إلّا أنّ الوالد يبقى مصرّاً على إنزال العقوبة بـ (مفيدٍ) رداً على فعلته الشائنة؛ وهنا يطيب للمتسلّط أن يمارس سيطرته على الضعيف، فإذا تمرّد هذا، تفاقمت عدوانيّته لأنّ هذا التمرّد يطعن جبروته في الصميم.

إنّ عاشق الألم، ويمثّل الوالد أحد نماذجه، لا يحسّ بالقوة إلّا عبر ضعف الضحيّة، الذي كان هو سببه، وهو أيضاً لا يحسّ بالوجود إلّا من خلال تبخيس الآخر. يبدو أنّ هذا جزء من ساديّة مازوخيّة. والسّاديّة المازوخيّة أو الإساءة (بالإنجليزيةSadomasochism) هي إيذاء أو إذلال الآخرين وعدم احترامهم، أو الإيذاء أو عدم الاحترام والإذلال من قبل الآخرين، مما يسبّب الرّضا النّفسيّ. يشير هذا الشّذوذ إلى التّفاعلات الّتي يشعر بها شخص ما بالرّضا من إيذاء شخص آخر، ويستمتع بالأذى والإذلال. وهنا يبرز الجانب الوراثيّ في شخصيّة (مفيد)، فلربّما ورث ذلك السّلوك عن والده الّذي تفوّق عليه بأشواط. ولذلك تتّخذ العلاقة الإنسانيّة منحى العنف والعدوانيّة، عوضاً عن الحبّ، كما تتّخذ المشاعر الغيريّة

منحى الأنويّة بدل الاعتراف المتبادل، وتوازن التعاطف (حجازي، ۲۰۱۳: ۱۳۲). عاطفةٌ إيجابيةٌ فقدها البطل من الوالد الذي يتكفّل بتأديبه بطرائق عدوانيّة قاسية، ولا يتوقّف العقاب حتّى «**يُغمى عليّ**» (مينه، ۲۰۰۷: ۷)، أو «**تتدخّل أمّي، ويتدخّل الجيران، ويكفلوني عنده**» (المصدر نفسه، ۷).

لو نظرنا بين طيّات السطور، للفت نظرنا أنّ العقوبة التي تلقّاها (مفيد) لم تشكّل المرّة الأولى لتعاطي الوالد بالعنف، ولم تكن قسوة الوالد فقط ردًّا على قطع ذيل الحمار، إنّما يبدو أنّ طريقته في الضرب كانت ديدنًا له، إذ صرّح (مفيد) في غير موضع بذلك «**كانت طريقته المفضّلة هي ربطي بالحبال**» (المصدر نفسه، ۷)، ولم يقم بالدّفاع عنه حين وقع بين يديّ رجال القرية «**لم يقل والدي شيئًا، كان قاسياً غاضباً، يتحرّق لإنزال أقصى العقوبة فيّ**» (المصدر نفسه، ۱۱). ممّا لا يثير العجب في هذه الحال، أن نرى (مفيدًا) يفقد عاطفته تجاه والده المتجاهر بالظّلم، ومن جهةٍ ثانيةٍ، يكادُ يكون نُسخةً عن سلوك الوالد أو مقلّدًا له.

يُجمع مجمل العلماء على أنّ الأب هو رمز السلطة والقدرة، ويمثّل القانون الاجتماعيّ عبر منعه تحقيق الرغبات غير المتلائمة مع المعطيات الاجتماعيّة، ومن دون هذا المنع لن يتمكّن الطفل من تحقيق انبنائه النفسيّ أو الاندماج في ثقافة مجتمعه (سليم، ۲۰۰۲: ۲۳۹).

كما يؤدّي الأب دورًا في حياة الطفل، وتتوقّف هذه العلاقة ونوعيّتها على مواقف الأب، فلا يقيم الولد علاقةً بالأب ما لم يقم الأخير بالمبادرة، فيعيش الابن إذّاك حالتي التماهي والمحاكاة. وتحدث المحاكاة بناءً على وجود قدرة الولد على تكوين صورة ذهنيّة للأفعال التي يكون قد شاهدها سابقًا، فهو يقوم بتقليد كلّ شيء يقع تحت ناظريه، وبما أنّ (مفيدًا) لم يشاهد من والده سوى القسوة والعنف، وهو لا زال طفلًا في كنف الأسرة، كان من البديهي أن يحاكي مشاهداته «**بالإعتداء على أملاك الناس، وسرقتها، وإتلافها أحيانًا**» (مينه، ۲۰۰۷: ۷) ، إلى أن وصلت به الحال إلى قطع ذيل الحمار «**انتقاماً من صاحبه الذي شكاني إلى والدي، بسبب ما كنت أقوم به**» (المصدر نفسه، ۷)، يبدو أن هذه الأمور ليست تقليداً للأب ، بل هي نوع من آلية التعويض من جانب الابن ، والتي ظهرت في نظرية أدلر، وتشمل ما يلي: السلوك المعادي للمجتمع، الذي تسببه التجارب الحياتية المريرة والتمرد . فالنّقص العاطفيّ الّذي يعيشه بطل الرّواية، دفعه في أكثر من موقف، إلى القيام بتصرّفات عدوانيّة، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على فجوةٍ نفسيّةٍ عاطفيّةٍ، يحاول ملءها بالشّغب وتعذيب الآخرين.

أمّا التماهي، فيعني أنّ الطفل يتقمّص شخصيّة أحد الوالدين في سماته الانفعالية (سليم، ۲۰۰۲: ۲٤۲). فبطل الرواية، وبعد أن كان الوالد يُنزل به أشدّ العقوبات، قام بدوره بذلك، وأنزل أشدّ عقوبة بذنب الحمار، وهي ردّة فعل طبيعيّة نتيجة ما يتلقّاه من معاملة. وفي البحث في موضوعات التّربية والتّفاعل الاجتماعيّ، يلفت روّاد نظريّة التّعلّم بالنّمذجة، ميللر ودولار في كتابهما الشّهير (التّعلّم الاجتماعيّ والمحاكاة)، وهو ما طوّره ألبرت باندورا وولترز فيما بعد، حين يؤكّدان على مبدأ الحتميّة التّبادليّة في عملية التّعلّم، من حيث التّفاعل بين ثلاث مكوّنات رئيسة وهي: السّلوك والمحدّدات المرتبطة بالشّخص والمحدّدات البيئيّة (الزغلول، ۲۰۱۳: ۱۲۵-۱۲٦). وقد أضاف باندورا إلى ذلك من جديد في كتابه المشترك مع ريتشارد ولترز، والّذي

حمل عنوان (التّعلّم الاجتماعيّ وتطوّر الشّخصيّة)، رأى أنّ معظم السّلوك الانسانيّ متعلّم باتّباع نموذج أو مثال حيّ وواقعيّ وليس من خلال عمليّات الاشتراط الكلاسيكيّ أو الاجرائيّ، فبملاحظة الآخرين تتطوّر الفكرة عن كيفيّة تكون سلوك ما (محمد، ٢٠١١، ١٦١).

بطل الرواية، (مفيد)، بدا مضطرب الشخصيّة متقلّب المزاج، لأنّ الوالد يشكّل نموذجاً متذبذباً، غير مستقرّ، ما أدّى بالطفل إلى القلق وعدم الاستقرار، في تماهي الولد بالوالد.

فالعنف، يبقى الوسيلة الوحيدة في يد الإنسان للإفلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخليّ الذي يتضمّنه هذا المأزق، كما أنّه السلاح الأخير لإعادة شيء من الاعتبار المفقود إلى الذات من خلال التصدّي مباشرةً، أو مداورة للعوامل التي يراها مسؤولة عن التبخيس الوجوديّ الذي حلّ به، وهو الوسيلة الأكثر شيوعاً لتجنّب العدوانيّة التي تدين الذات الفاشلة من خلال توجيه هذه العدوانيّة إلى الخارج، وكلّما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي. هذا السّلوك إذًا، هو الوجه الآخر للإرهاب والقهر اللذَين يُفرضان على الإنسان في المجتمع المتخلّف، صفتان وجدتا في الوالد المربّي، وبعد حينٍ، انعكست في الابن المتلقّي (مفيد)، انعكاساً صريحاً.

لا يغيب هنا، اعترافُ (مفيد) بحسن صنيع والده في العمل، حفاظاً على كرامته «**في هذه البقعة الصغيرة، ذات التربة السمراء، يعمل والدي ...مكتفياً بقطعة أرضه الصغيرة، التي يزرعها، قانعاً بعيشٍ يقوم على الكفاف، رافضاً بعناد أن يكون مرابعاً، تابعاً لأحد الملّاكين في القرية**» (مينه، ٢٠٠٧: ٤٧)، فبعد أن أسقط كلّ تصرّفاته الشقيّة على والده وقسوته، وقسوة المعلّم، وأهل الضيعة، دفعه الحنين بعد عدة سنوات، إلى الاعتراف بالشّوق الشديد إلى طفولته «**يشدّني شعور رقيق، ولكنّه حارق،إلى أيّام طفولتي الأولى**» (المصدر نفسه، ٤٧)، وإن لم يمتنع بعد ذلك، عن ذكر الكره الذي يحمله لوالده والقرية.

٧. دور الأمّ المساعدة في بناء ذات البطل

يتناول هذا المبحث أهميّة وجود الأم في الحياة النفسية للطّفل بشكلٍ عام، وفي نفس بطل الرواية بشكل خاصّ، كما يدرس الذكريات التي زرعتها الأمّ الطيبة في نفس (مفيد):

٧-١. الأمّ في الحياة النفسية للطّفل، ملاذٌ وحضنٌ دافئ

الدّينامية الأسريّة، كما شاهدنا آنفًا، هي حركة تفاعل بين العناصر المكوّنة للأسرة، وهذه العناصر بالذّات، هي حركة تفاعل مع بيئةٍ أوسع وأشمل في المجتمع. والحقّ أنّ حياة الطفل الصغير داخل الوسط الأسريّ تشكّل أولى تجاربه مع العالم الخارجي. فأوامر هؤلاء ونصائحهم تسجّل في داخله كممنوعات شديدة القوّة، فتصبح صورة الأهل نموذجاً ثابتاً يمتصّه الطفل (الموسى، ٢٠١١: ٢٢٠)؛ ويكون الوالدان مصبّ التماهي في حياة الصغير. فالصّراعات العاطفيّة والمآزم النفسية، تنتقل للفرد بفضل

التماهيات والإسقاطات المتبادلة بين الآباء والأبناء. هذا التماهي يستلزم تفسير الفرد، بصورة رمزية، مواقف الآخرين إزاءه على غرار علاقته بوالديه (المصدر نفسه، ٢٢٠).

وبما أنّنا أفردنا هذا المبحث لدراسة علاقة (مفيد) بأمّه، لا بدّ لنا من ذكر قول الطبيب والمحلّل النفسيّ البريطانيّ، جوني بولبي حين يقرّ بأنّ علاقة الطفل الأولى بأمّه، تعدّ بمنزلة حجر الزاوية في تكوين شخصيّته (قنطار، ١٩٩٢: ٣٦-٣٣).

الأمّ إذاً، هي بمنزلة عالم الطفل الأوّل قبل الولادة وبعدها، وهي المسؤولة عن تأمين الغذاء الماديّ والمعنوي للطّفل، فعلى عاتقها تقع مسؤوليّة الأمان النفسيّ الذي هو شرطٌ ضروريّ للنّمو العاطفيّ السليم (الموسى، ٢٠١١: ٢٢٢)، كما أنّ خبرات أعوامه الأولى ذات تأثيرٍ شديدٍ في حياته اللّاحقة (فرويد، ١٩٨٦: ٧٥).

والدة (مفيد) في «**نهاية رجل شجاع**»، قامت بهذا الدور المنوط بها، على أكمل وجه، كانت المنبع العاطفيّ لابنها، تحيطه باهتمامها وحبّها، تقدّم له ما يحتاجه لإشباع حاجاته الغذائيّة «**تسقيني وتطعمني**» (مينه، ٢٠٠٧: ٨)، كما كانت تقدّم له كلّ الرفق والودّ «**سألتني عن حالي، وداوت الجراح والكدمات ...وأتتني برغيف وحبّات من الزيتون**» (المصدر نفسه، ٨)، فضلًا عن العناية الخاصّة التي أحاطته بها «**ولأنّ حالتي كانت سيّئة، فقد سلقت لي بيضةً، كتعويضٍ عمّا لحقني، ثمّ كلّمتني بهدوءٍ، بلطفٍ، بحنان الأمّ**» (المصدر نفسه، ٨)، كان يعي خوفها «**أمّي كانت تخاف لشدّة الضرب**» (المصدر نفسه، ٧)، خالية الوفاض كانت دوماً، ما كان بوسعها سوى البكاء، لذلك لُقّبت بـ «**البكبوكة**» (المصدر نفسه، ١٠)، تتوسّل الوالد حيناً ليرفق بولدها، ولو بالإهانة «**لا تقل إنه مجنون**» (المصدر نفسه، ٢٩)، خالقةً الأعذار لابنها «**ابننا طائش، وفي مثل عمره يطيش الأولاد، وغداً يكبر ويعقل، لا تغضب أرجوك لا تغضب، لا تقتل نفسك قهراً**» (المصدر نفسه، ٢٩).

هذا الطفل، أي (مفيد)، يميّز تماماً العاطفة التي يتلقّاها، يجد فارقاً كبيراً بين ما تقدّمه الوالدة من تعاطف، رغم ما فعله ابنها «**ارتمت على قدمي المختار، وقبّلت ركبتيه متوسّلةً،متضرّعةً، باكيةً، حتّى أشفق الجمع على حالها**» (المصدر نفسه، ١٠)، فحفلات التعذيب، كما أسماها (مفيد)، كانت تزيدها كدراً «**والدتي لم تتحمّل المشهد، أخرجوها من البيت، وأغلقوا الأبواب دونها، تسمع وتستغيث ولا مغيث**» (المصدر نفسه، ١٠). يلاحظ (مفيد)، على الرغم من شقائه، ويقارن بين ما قامت به الأمّ وبين ردّة فعل الوالد بعد تعنيف ابنه «**رفض والدي أن ينظر إليّ، اعتبر فعلتي جريمةً، قضيّةً تمسّ شرف العائلة**» (المصدر نفسه، ١٠)، بدلاً من أن يقوم بالتّقرّب من ولده ومعالجة أسباب المشكلة «**وهكذا تركني في أرضي وانصرف**» (المصدر نفسه، ١٠).

الأمّ المقهورة هذه، التي كان (مفيد) يشهد غير مرّةٍ، قهرها وعذابها وسعيها إلى مساعدته «**تشرع المسكينة بنصحي، وملاطفتي، ومساءلتي عن السبب الذي جعلني أرتكب فعلتي**» (المصدر نفسه، ٨)، مع أنّها كانت تنال نصيبها من العقوبة «**لكنّ أمّي كانت تجازف، تتحمّل الضرب والشّتم ...وتأخذ في ملاطفتي ونصحي**» (المصدر نفسه، ١٩)، معترفًا بأنّه كان السبب في شقائها «**وكثيرًا ما أبكيتُ أمي**» (المصدر نفسه، ١٧)، وبعمليّة إسقاطيّة واضحة، عادًّا المحيطَ، السببَ

الرئيس في ما يقوم به «**لا أنفي أنّني كنت شقياً منذ ولادتي، لكنّ القصاص الذي أنزلوه بي، حوّل هذه الشقاوة إلى قصد، فرحتُ أبحث عن سببٍ للشّجار، وللاعتداء، وعدت إلى المدرسة أحمل روحاً عدوانيّةً**» (المصدر نفسه، ١٥)

هذه النفس الغاضبة التي يختزنها قلب (مفيد)، من الطبيعي ألّا تُجدي معها عاطفة أمٍّ ضعيفةٍ، لا حول لها ولا قوّة سوى الدموع والخضوع لما يقرره الوالد.

كذلك لعلاقة الأب بالأمّ دورٌ بارزٌ في شخصيّة الابن، فالأب هو القانون. فهو ليس فقط المانع الأوّل لرغبة الطفل في أمّه، بل هو أيضًا من يردّ دائماً إلى مبدأ الواقع. إنّه يأمر ويعاقب ويكافئ، والمنافس الذي يحاول الطفل تقليده ويطمح إلى تجاوزه (الموسى، ٢٠١١: ٢٢٧)؛ أما والد (مفيد) في الرواية، فكان المعاقِب فقط من دون مكافآت أو توجيهات، فلم يترك في نفس البطل أيّة صورة إيجابيّة. آية ذلك، أنّ التفاهم بين الأب والأمّ، ينعكس إيجاباً على الأطفال من خلال الشعور بالثقة والأمان (المصدر نفسه، ٢٢٧).

في «**نهاية رجل شجاع**»، لم تظهر في الأسرة سمات التفاهم نهائيّاً، ولم يبدُ دور الأب طبيعياً، فالوالد كان متسلّطاً، قامعاً، قاهراً، على مرأى ومسمع أبنائه، فمن الطبيعيّ أن يترك ذلك أثره السلبيّ في نفسيّة الأبناء. أمّا الأمّ فبدت ضعيفة جدًا، وهي التي تؤدّي دوراً أساسياً في بناء الشخصية العاطفيّة والاجتماعيّة والصّحة العقليّة للفرد. وفي هذا تعطي ميلاني كلاين[١] أهميّةً كبيرةً وأساسيّةً لعلاقة الطفل بأمّه، وترى أن النموّ لا يمكن أن يحدث بطريقةٍ سليمةٍ، إذا لم تتجذّر صورة الأمّ مع الأنا في أمان (سليم، ٢٠٠٢: ١٣٢).

انعدام التوازن العاطفيّ الأسريّ في بيت (مفيد)، ساهم إلى حدٍّ كبيرٍ في الإضطرابات النفسيّة التي عانى منها، فعاش متأرجحاً بين قسوة والدٍ ظالمٍ، حمل كرهه معه حتّى نهاية حياته، وبين والدةٍ عطوفٍ استذكر مواقفها الرقيقة، كلّما جلس بين يدي الذكريات أو سلّم جمجمته للأحلام.

٧-٢. الأمّ في ذاكرة مفيد الرجل، بين الذكرى والحلم

الأمّ الحنون ما برحت ترافق (مفيد)، في تنقّلاته الكثيرة إلى بانياس واللّاذقية وجبلة وطرطوس، حيناً في ذكرياته، وحيناً آخر في أحلامه. «الأمّ هي أهمّ منشأ للراحة والمحبّة في العائلة وأقوى مصدر لسعادتها، فهي التي تبعث الطمأنينة والسلام والقدرة

---

[١] ميلاني كلاين (١٨٨٢- ١٩٦٠): العالمة والمحللة النفسيّة والرائدة في مجال التحليل النفسيّ للأطفال. وجدت كلاين من خلال أبحاثها أنّ لعب الطفل ليس نشاطاً لا هدف له ولكنّه ثمرة من ثمار الخيال الواسع للطفل وتعبير عن مشاعر القلق والذنب لديه. ويمكن دراسة هذا اللعب وتفسيره باستخدام أساليب التحليل النفسيّ وبأسلوب مشابه لأسلوب فرويد في تفسير الأحلام.

والاستقلال في نفوس الأطفال (القائمي، ٢٠٠٥: ١٣).

تتمثّل مهارات الذاكرة في تلك العمليّات التي تضبط نقل المعلومات من الذاكرة القصيرة المدى إلى الذاكرة طويلة المدى (سليم، ٢٠٠٢: ٢٨٣). ولقد رافقت ذكرياتُ الطفولة الوحشَ في رحلته، فتجسّدت أمامه غير مرّة «**جلستُ على الشاطئ الرملي ... أفكّر في الطبيعة... وفي البقعة الصغيرة ذات التربة السمراء ...**» (مينه، ٢٠٠٧: ٤٧)، ذكرى الوطن الأمّ، القرية حيث ولد ونشأ، حيث الوالدة، الأمل الوحيد في الحياة.

الأمّ التي عاشت في وجدانه، بعد هجره القرية، بقيت حيّةً في خياله «**فكّرتُ أن أرسل مبلغاً صغيرًا لوالدتي**» (المصدر نفسه، ٤٧)، لكنّ والده، الذي كان بالنّسبة إليه كهادم الملذّات، هو ما أوقفه عن القيام بذلك «**لكنّ والدي كان قد تبرأ منّي ... فخفت أن يضربها نيابةً عنّي، لذلك صرفت ما توفّر لي في استئجار غرفة**» (المصدر نفسه، ٤٧)، خوفه على والدته من العقوبة هو ما دفعه إلى عدم إرسال المال، في إشارةٍ إلى عاطفة الحبّ والشّوق تجاه أمّه التي لم تطفئها الأيّام، أو تعدمها المسافات، ومن جهة ثانية، عاطفة الأسى تجاه الوالد الظالم .

تحمله الذكريات بين الحين والآخر إلى القرية، وهي كرمزٍ، حضن الأمّ، حيث يشعر بالطّمأنينة والأمان «**أمام المغيب، وزرقة البحر، وخضرة الطبيعة، تتبدّل حالك. تقتلك العاطفة الملعونة، ويرفرف قلبك مثل عصفور في صدرك**» (المصدر نفسه، ١٨١)، يتذكّر متشوّقاً ومهموماً «**أتوجّع من حنان وخوف على أمّي، التي يعاقبها حين يعاقبني ...كان بودّي أن أستغفر هذه الأمّ، أن أقبّل رأسها ويديها، أن أضمّها إلى صدري وأشمّ رائحة الأمومة في عنقها النحيل من تعبٍ ومرضٍ**» (المصدر نفسه، ٤١).

يحاسب دوماً نفسه ويطرح الأسئلة، محاولاً معرفة سبب ما أوصله إلى حالته هذه، مستذكرًا كلّ ماضيه في شريطٍ سريعٍ «**إنّني في سلوكي العائليّ، تجاوزت حدود الشيطنة إلى العقوق**» (المصدر نفسه، ٢١١)، باحثاً عمّا جعله يقوم بهذه الأفعال «**ما هو الدافع الشيطاني الذي دفعني إلى قطع ذنب الحمار، هذه الفعلة السخيفة والبغيضة، التي كُتب عليّ بعدها أن أهجر البيت والقرية، وأتشرّد وأجوع، وأسرق، وأدخل السجن؟**» (المصدر نفسه، ٢١١)، محمّلاً هذه الفعلة مسؤوليّة ما يعانيه، معلنًا انزعاجه «**هل خُلقتُ فعلاً لهذه الحياة القذرة، أم أنّ ذلك كُتب على جبيني؟ هل ما كُتب على جبيني هو الرذيلة وحدها، أم هناك مكان للفضيلة أيضًا؟**» (المصدر نفسه، ٢١١)، باحثًا في ثنايا الحياة عمّا يُخرجه من آلامه، في محاولةٍ للإفلات من القذارة التي تلفّ به، والتي جعلته يعيش ما يحبّ كذكرى.

تدور الايّام وتتغيّر الظروف، يترك معلّماً ويرزح تحت كنف آخر، ويعاود تذكّر شريط الطفولة، مُصرًّا على تحميل والده جزءًا من مسؤوليّة ما قام به «**لعلّي قطعت ذنب الحمار انتقاماً من أبي**» (المصدر نفسه، ٢٤٧)، وتحميل المعلّم جزءًا آخر من مغبّة ما قام به «**ولم يكن معلّم المدرسة بأقلّ قسوة عليّ من أبي**» (المصدر نفسه، ٢٤٧)؛ وتبقى للأمّ مكانة خاصّة «**باستثناء أمّي، تلك المرأة الطيّبة**» (المصدر نفسه، ٢٤٧)، موضع الذكريات الرقيقة الحنونة «**أمّي وحدها كانت إلى جانبي،**

وظلّت إلى جانبي حتّى هربتُ من القرية. كانت تسهر اللّيل كلّه إذا كنت غائباً، وتفتح لي الباب، وتقدّم لي ما عندها من طعامٍ، وتفرش لي كي أنام، وهي تقول في توسّل:

– لماذا يا مفيد، يا حبيبي، تسلك طريق الشرّ؟

– لأنّهم دفعوني إليه دفعاً.

– من هم؟ من تقصد؟

– أقصد الجميع، والدي قبل الجميع.

– لكنّك أنت المسؤول ... حين يكون الولد شقياً، فمن حقّ والده أن يؤدّبه.

– ليس بهذه الطريقة.

– بأيّ طريقةٍ إذًا ؟

– باللّطف» (المصدر نفسه، ٢٤٧).

كان البطل حافظًا في ذاكرته جميلها في ما كانت تقوم به، مستذكرًا أدقّ تفاصيل الأحاديث، معترفاً بحبّه لها «**أنت أمّي، وأنت حبيبتي، أنت القلب الوحيد في الضيعة الذي يحبّني بصدق، وأنا أحبّه بصدق، وأفكّر بطريقة لإرضائك، لأجعلك سعيدة**» (المصدر نفسه، ٢٤٨)، نكوص واضح، إذ يلجأ صاحب العقد إلى الهرب خارج الواقع من طريق النكوص الذي يكون بعثًا للماضي. وهذا الانبعاث هو عودة إلى الطفولة، أو إحياء لمرحلة من الحياة الجنسيّة الطفلية (الموسى، ٢٠١١: ٩٥).

لذا نراه يستحضر ذكرى والدته برمزيّتها، فهي الحبيبة والوطن، ومراتع الطفولة والقرية، والحلم الجميل الذي لجأ إليه كلّما ضاقت به الحياة، أو أشرقت الشمس فوق جبينه.

٨. دور المجتمع في رسم الملامح الشخصيّة للطّفل

إنّ عوامل الكبت والعصاب، كما يرى –الطبيب العقليّ النمساويّ– أدلر، لا تنحصر في العقد الفطريّة وفي رواسب الماضي، وإنّما ترتبط بالنّزعة الغائيّة التي توجّه المرء نحو غاية ما. وهكذا أسّس أدلر علم النفس الفردي. والفكرة التي يرتكز عليها مذهبه تقول بأنّ نزعة الفرد إلى أن يؤكّد نفسه، وإرادة الاقتدار لديه اللتين تتجلّيان بصورة الاحتجاج الرجوليّ في مسيرة الحياة وفي الطبع والعصاب (أيوب، ٢٠١١: ٢٣). إلا أنّ الغاية التي يسعى إليها الفرد، لا بدّ أن تتأثّر بالمحيط. إنّ للمحيط دورًا كبيرًا في تكوين الضمير الجمعي واتجاهات إيجابيّة نحو الجماعة الملكيّة العامة، انتماء إلى المجتمع واعتزاز به و بمؤسساته، فالبيئة الاجتماعية تساعد على إشباع حاجات الطفل النفسيّة مثل حاجاته إلى أن يحبّ ويُحبّ وحاجاته إلى الصحبة وحاجاته إلى الانتماء وحاجاته إلى الإنجاز وإثبات الذات (سليم، ٢٠٠٢: ٢١).

لذا أفردنا هذا المبحث لدراسة دور المجتمع، حيث عاش (مفيد)، وترك أثرًا في شخصيّته، بدءًا بالرّفاق، ثمّ المعلّم في المدرسة، وأخيرًا أهل الضيعة وما ألحقوه به من عقوبة رافقته طوال عمره، فجاء المبحث مجزّأً على الشكل الآتي:

أ-دور الأتراب في بناء الشخصيّة.

ب-المعلّم وتأثيره في تفاقم الوضع سوءًا.

ج-أهل الضيعة، ذنب الحمار، وعقوبة مدى الحياة.

٨-١. دور الأتراب في بناء الشخصية

من طبيعة الإنسان أنّه مخلوقٌ مهيّأ للحياة في جماعة، وهو في الوقت نفسه متكيّف مع الجماعة، والمقصود بذلك، أنّه كفرد، يملك الطموح للاتّصال بنظائره والتقائهم، وهو في الوقت نفسه، عضو في جماعةٍ كانت موجودة قبله، جماعةٍ تشكّله وتراقبه، سواء أراد أم لم يرد (الموسى، ٢٠١١: ٥٥).

أمضى بطل الرواية طفولته لاهياً، مع عصبةٍ فاسدةٍ من أولاد القرى المجاورة، يقضون وقتهم في «**الاعتداء على أملاك الناس، وسرقتها، وإتلافها أحيانًا**» (مينه، ٢٠٠٧: ٧). لذا كان يجد أرضاً خصبة لمشاغباته، إذ هناك من يرافقه في جولته، من أبناء القرية؛ حتّى عند خروجه من القرية كان يلتقي بمن يتسكّع معهم، ممّن «**تجمعني به الصدفة، كعملٍ عابرٍ، أو رفقة طريقٍ، أو شراكة القيام بمغامرةٍ في الميناء أو شوارع اللاذقية، أو الصيد في البرّ والبحر، أو عضويّة غير شرفيّة لعصابة من الفتيان**» (المصدر نفسه، ١٧).

نادراً ما يوجد بين الناس من يستطيع مواصلة الحياة السويّة من دون دخول في الـ «نحن»، أي في الجماعة، ثمّ إنّ المناخ الطبيعيّ ومعطياته، وكذلك المعايير والقيم، ونماذج السلوك، وسائر عناصر الحضارة الخاصّة بالجماعة، تتلقّف الفرد، منذ وروده إلى الحياة، وتعمل على طبعه بطابعها (الموسى، ٢٠١١: ٥٥).

كذلك تؤثّر صحبة الرفاق في سلوك الإنسان تأثيراً جذريّاً، كما يقول المثل الفرنسيّ: إذا أردت أن تعرف إنساناً، فاسأل عن صحبته، فجماعة الرفاق المنحرفة قد تورّط الفرد في كثيرٍ من الانحرافات والمساوئ، وتكون سبباً في تكوين السلوك غير السويّ (ياسين، ١٩٨١: ٢٩٣).

وبما أنّ الأرضيّة المناسبة للمتابعة في سلوك طريق الشغب كانت معدّة، وبما أنّ الجوّ الأسريّ غير حاضن، وصفّ المدرسة لم يستوعب مشاغبات (مفيد)، أطلق البطل العنان لخياله الجامح، وركب الأمواج مع من أتاحت له الظروف اللّقاء بهم معزّزًا سلوكه اللّاهي، لاهثًا خلف ما سوّلت إليه نفسه، فكان يتزعّم عصابة الفتيان، مقترحاً «**التوجّه إلى الريف، لاستباحة أيّما كرمٍ للعنب، أو مزرعةٍ للبرتقال، أو حقلٍ للأشجار المثمرة، أو إمساك الدجاج، أو التسكّع في بازار اللاذقية، لممارسة الشقاوة، كأن نضع حجراً في سلّة بيض يحملها فلّاح، أو نربط شملتي قرويين يجلسان متجاورين، أو إلقاء سيجارة مشتعلة في جيب سترة تركماني ينزل المدينة للتّسوّق، أو نشل بعض المحافظ وبعض النقود حين نكون جياعاً أو في حالة**

إفلاس تامّ» (مينه، ٢٠٠٧: ١٧).

٨-٢. المعلّم وتأثيره في تفاقم الوضع سوءًا

تؤثّر المدرسة تأثيرًا كبيرًا في نموّ الطفل الاجتماعي وأنماط سلوكه وشخصيّته، فعن طريق المدرسة يتدرّب الطفل على أنماط من التفاعل الاجتماعيّ وأفراد آخرين، بطريقةٍ تختلف عن مستوى التعامل مع الأسرة؛ فيتدرّب الطفل على الأخذ والعطاء والتنافس والتعاون والكفاح والمثابرة؛ إذ إنّ المدرسة بيئة حافلة بأنواع المنافسات والخبرات، وفيها يمارس الطفل الميول والهوايات ويتدرّب على مبدأ الحقوق والواجبات؛ فدور المدرسة مهم في تزويد الأطفال بالخبرات الاجتماعية وصقل وتنمية الميول والمهارات والقدرات، وفي تطبيع الطفل على الكثير من قواعد السلوك الاجتماعي والأخلاقي (سليم، ٢٠٠٢: ٣٤٥).

أمّا إذا كانت المدرسة، لا تتميّز بشيء ممّا يجب أن تتّسم به المؤسّسة التربوية، بدءًا بالمعلّم. فعلى المعلّم أن يتحلّى بصفاتٍ فُضلى تجعله قدوةً للطلّاب، يتماهون به ويقلّدون تصرّفاته؛ فما زاد الطين بلّةً في الرواية، أنّ المعلّم شعبان كان يفتقد صفات المعلّم التربوي الذي يحلّ المشاكل ويعالجها بحكمة ورويّة، إلّا أنّه في عقب الجريمة التي ارتكبها (مفيد) -وفقاً لمقولة المختار- وبعد أن «**شهد العقوبة التي نزلت بي عند المختار، كان يُعدّ لي عقوبة من نوع آخر، كلاميّة هذه المرّة**» (منيه، ٢٠٠٧: ١٥).

إنّ للعنف الكلاميّ أثر في الأفراد، لأنّ العنف والتّدمير نزعةٌ طبيعيّةٌ في الإنسان، تتعايش مع نزعة مناقضةٍ لها يسمّيها نزعة الإيروس أو نزعة الحياة، التي تدفع إلى الإبداع والخلق لدى الإنسان. هذه العدائيّة أوّليّة وأصيلة لدى الإنسان، وغير محوّلة ثقافيًا؛ وسواء أكان هذا العنف فطريّاً أو مكتسباً، فذلك لن يغيّر في الودّ قضيّة، فطريقة التعاطي في معالجة المشكلة كانت قائمة على السخرية حيناً والاستفزاز حيناً آخر، وعلى تعظيم المشكلة بدلاً من تقليصها، وهو أسلوب خاطئ في معالجة المشاكل، في حين يدعو علم النفس إلى إهمال السلوك، لدفع الطفل إلى ترك ما يقوم به، إن كان يفعل ذلك بهدف لفت أنظار المحيط. بدلاً من ذلك، قام المعلّم في الرواية، بتعطيل الحصّة التعليمية، وجعل قضيّة قطع ذيل الحمار، موضوع الحصّة «**صرف النظر عن الدرس، جعلني موضوعاً للحصّة الدراسية بكاملها**» (مينه، ٢٠٠٧: ٣٠) ، وما أبعد (مفيد) عن حبّ المدرسة أيضاً، شخصيّة المعلّم، فكان «**شيء ما في تكوينه، هيئته، بروز أنفه، يغريني بالعبث به، خاصّةً إذا أطال نكش أنفه في الصف، وأنزل بي عقوبة، أو ضايقني بإخراجي للتّسميع، وراح يطمرني بالأسئلة والتّقريعات بصوته الحادّ كصوت ذكر الإوز**» (المصدر نفسه، ١٥)، فكان يصفه دوماً بطريقة سلبيّة، لا تمتّ إلى المعلّم المثاليّ بصلةٍ «**المعلّم الغبيّ الذي أتقزّز وأنا أراه ينكش أنفه في الصف، قد أقام بيني وبين العلم سدّاً، بطريقته الفذّة، وأسلوبه الذي ينفّر البغل من شرب الماء وهو عطشان**» (المصدر نفسه، ٤٠).

هذا الوصف للمعلّم بلسان (مفيد)، يُبرز للقارئ علاقته به، فتنعدم إذّاك حالة التماهي أو إمكانيّتها في ظلّ أجواء مشوّشة تحيط بهما «**رأيت الشرّ في عينيه منذ دخل**» (المصدر نفسه، ١٥)، ولأسبابٍ سخيفةٍ أو محقّةٍ «**فيعمد إلى ضربي ومعاقبتي وحبسي في المدرسة، وتقديم الشكاوى إلى والدي، دون أن تفلح أيّ من أساليبه في جعل عقلي يتفتّح للفهم أو**

الحفظ أو القراءة ... بل إنّه كان يتمنّى غيابي، ليتخلّص من شقاوتي، ومضايقاتي، ومشاجراتي مع التلاميذ من مختلف الأعمار» (المصدر نفسه، ٢٢).

(مفيد) التلميذ، يلاحظ بتأنٍ وتأكيد، مشاعر معلّمه تجاهه، كلاهما لا يتقبّل الآخر، وكلاهما يحاول أن يكون ندًّا للآخر. الفرق بينهما أنّ المعلّم يجب عليه استيعاب تلميذه كونه يكبره سناً، ويُفترض به أن يلتحف المعرفة والدّراية؛ ولم يكتفِ المعلّم بذلك فقط، بل كان «**يثور، ويخرجني من الصفّ، ويضربني من شعري الخشن، ويصيح في وجهي: يا كلب ... أنت شقيّ ... أنت كلب ... أنت حمار ... سأضربك وأحبسك ...**» (المصدر نفسه، ٢٤).

معاقبة المعلّم لـ (مفيد) لم تكن عبثيّةً، إنّما كانت ردًّا على سلوك (مفيد) الاستفزازيّ داخل الصف، الذي كان يحاول إغضاب المعلّم بشتّى الوسائل «**كان المعلّم يُستثار، فيذهب في الغرفة ويجيء، وكلّما أعطاني ظهره قمت بحركاتٍ تُضحك الأولاد في الصفّ، أو نقفتهم بالحصى، أو عدت إلى مكاني دون أن يطلب منّي ذلك**» (المصدر نفسه، ٢١).

ما يلفت النظر في الرواية، اعتراف (مفيد) في أكثر من موضع بسلوكه المزعج وحركاته الصبيانيّة «**أعترف كنت غبياً، أو كنت أتغابى، فلا أحفظ ما في الكتاب، ولا أعي ما يقوله المعلّم، ولا اكتب وظائفي، وأشاغب طوال الوقت، فإذا سألني المعلّم سؤالاً، كنت أقطع عليه درسه، فأرميه بحبّات الزيتون، أو حبّات الزنزلخت، أو الحصى، عندما يدير ظهره إلينا ليكتب على اللّوح الخشبيّ الأسود**» (المصدر نفسه، ٢١).

يتدخّل المهتمّون هنا، فيكون التأكيد بأنّ الآباء والأمّهات أو المعلّمين يلجأون إلى الضرب في إخضاع الطفل لقلّة صبرهم، لأنّهم يعتقدون أنّ هذا الأسلوب يختصر الطريق عليهم لحلّ مشكلتهم مع الصغار، لكنّ الضرب قد يسكت الطفل إلى حين، لكنّه في الواقع يترك آثاراً سلبيّةً في شخصيّته، فهو يولّد لديه إحساساً بالقهر والخوف من جهة، وموقفاً رافضاً من الشخص الذي يضربه من جهةٍ أخرى (فضل الله، ٢٠١٣: www.bayynat.org.lb).

هذا الشرح يترجمه موقف (مفيد)، في الحديث عن أحد المواقف مع المعلّم «**كان يضمر شرّاً، وكنت مثله، أضمر شراً مماثلاً. لم أكن مبالياً برغم أنّ السكين ليس معي. كان شيطان يركبني، فأشعر بقوةٍ مضاعفةٍ وجرأةٍ مضاعفةٍ، ولا أشكّ أنّ في استطاعتي قهر المعلّم، في أيّ شجارٍ أخوضه معه**» (مينه، ٢٠٠٧: ٣٢).

فالطفل ينظر إلى نفسه وفقاً لنظرة الآخرين إليه. ويقوّم نفسه بنفسه كما يقوّمه الآخرون، وفي كلّ الأحوال، فإنّ العقوبة الجسديّة والمعنويّة تمثّل عوامل هدمٍ وتشويهٍ للشّخصيّة عند الأطفال، كأن تؤدّي إلى فقدان الثقة بالذّات وانعدام المسؤوليّة، وتعمل على تعطيل طاقات العقل والتّفكير والإبداع لديهم.

تنشئةٌ مدرسيّةٌ فاسدةٌ، إهمالٌ أسريٌّ، ولّدا طفلاً مشاغباً متمرّداً على القوانين والأعراف، لفظه المجتمع في المجهول، فهام يتخبّط في زواريبه الضيّقة باحثاً عن الحضن الدافئ الذي يخفّف عنه برد الشتاء ولهيب الصيف.

۸-۳. أهل الضيعة، ذنب الحمار وعقوبة مدى الحياة

في الأحياء الفقيرة الشعبيّة غالباً ما يكون أسلوب التسلّط والعقاب هو الأسلوب السائد في التربية، وهنا نجد عمليّةً منهجيّةً متكاملةً تسعى نحو تدمير الطفل وتجسيد إخفاقه.

عاش (مفيد) في قريةٍ بسيطةٍ، في كنف أسرةٍ تكافح لتعيش، في ظروفٍ إقتصاديّةٍ مريرةٍ قائمةٍ على الزراعة والرعي، وكانتِ المدرسة الوحيدة في القرية، يشرف عليها المعلّم شعبان -الذي سبق وصفه والحديث عنه- كذلك كان أهل الضيعة، انطلاقاً من المختار، الذي صوّر ما قام به (مفيد) بأنّها «**حادثة فظيعة تدلّ على روحٍ إجراميّةٍ، وبأنّها سابقةٌ خطيرةٌ** :«**اليوم ذنب الحمار، وغدًا أذن البقرة، وبعد ذلك من يدري، ربّما يطعن أحد التلاميذ أو المعلّم شعبان نفسه، أو ربّما استخدم السكين لطعن أيّما شخصٍ يقف في وجه شقاوته في القرية**» (مينه، ۲۰۰۷: ۹). حديث المختار هذا، الذي وقع على مسامع رجال القرية، ألهب مشاعرهم، وأثار في القرية جوّاً من «**الاستنفار العام، ترك الرجال أعمالهم، واجتمعوا في بيت المختار**» (المصدر نفسه، ۱۰)، وبدلاً من معالجة المشكلة برويّةٍ كان الطلب بإنزال أشدّ العقوبات به، ضرباً بالفلقة (**وكانت هذه العقوبة معروفة، مسبوقة، التي يتقنها رجال الدرك وأزلام المختار، ولها شهرة في كلّ القرى والمخافر المجاورة**» (المصدر نفسه، ۱۱)، متلطّفاً كلّ منهم باقتراحٍ يزيد العقوبة شدّةً «**ليس المهم الضرب، بل شكله، إذا لم يُضرب ضرباً موجعاً فلا فائدة**» (المصدر نفسه، ۱۱)، وقال آخر «**شرط الفلقة أن يتناثر اللّحم وينفر الدم**» (المصدر نفسه، ۱۱)، في حين أنّ المختار «**تبرّع مشكوراً بخيزرانته**» (المصدر نفسه، ۱۱)، وهكذا إلى أن «**انتهت حفلة التعذيب. أقيمت الفلقة أمام جمع كبير من أهل الضيعة رجالاً ونساءً وأطفالاً**» (المصدر نفسه، ۱۱). من الطبيعيّ أن يكون لهذه الأحداث أثرها وتداعياتها النفسيّة في داخل المعنَّف، فالحضور هنا كانوا يتدعون أساليب غريبة، بقصد إحداث أضرار بالغة في جسم ضحيّتهم، ما يعني الساديّة أو التلذّذ بإيلام الغير التي كانت الغاية الأقوى حضوراً.

يبدو أنّ الإيمان بفطريّة العنف عند البشر، يشير إلى انهيار الفرق الفاصل بين عاطفة الغضب وسلوك العنف، ما أدّى إلى المساواة بين الغضب والعنف، بحيث عُدّ الغضب عنفاً، والعنف أداة تعبيره الطبيعيّة (ويتمر، ۲۰۰۷: ۳۳۷). وإذا كان العنف الجسدي فعلاً مؤذياً، موجّهاً ضدّ آخر لإلحاق ضرر جسميّ له، وإذا كان الضرر الناتج عنه يبدو ظاهراً للعيان، فإنّ العنف الفكريّ، بما هو عنفٌ معنويٌ رمزيٌ ناعمٌ وشكلٌ من أشكاله غير المباشرة، موجّه ضدّ آخر بهدف قمعه، وهو نتيجة حتميّة لثقافة تعزيز الأنا وتنميتها وتحجيم الآخر.

ثقافة العقوبة الجسديّة هذه كان وقعها مراً في نفس (مفيد)، فخلقت ردّة فعل سلبيّة تجاه القرية وأهلها، وولّدت في ما بعد في داخله قلباً قاسياً، جعله يرمي بنفسه في التهلكة مرّاتٍ عديدةٍ، لا مبالٍ في ما تؤول إليه الأمور بعد ذلك، تاركاً من الدنيا كلّ مظاهرها الجميلة، يقاوم بوحشيّته وصلابة جسده كلّ ما يقف في وجهه، متصديّاً بشراسة «**أمام هذين الشرَّين اللذَين يكشّران في وجهي: البطالة والجوع**» (مينه، ۲۰۰۷: ۵۰).

كما أنّ للحقول المعجميّة دورها الواضح في الرواية، فانتشرت الحقول المعجميّة الدالة على العنف «**توجّع جسدي، ضربتك، أجلد، القبر، لم تعد لي طاقة، تعذّبني، أنت مجرم بالفطرة، فيدعني مربوطاً**». هذا الحقل المنتشر في واقع (مفيد) الطفولي وفي ذاكرته شاباً، جعلت منه رجلاً عنيفاً لا يهاب السجن، ولا يخاف العقاب. وممّا لا شكّ فيه أنّ العالم الداخلي لـ (مفيد) مثقل بالعذاب والمعاناة، فما كان منه إلّا أن ترجم انفعالاته من خلال ألفاظ، تنبع من ذاك العالم لتصبّ في الرواية.

٩. النتيجة

حصر (حنّا مينا) القصّة بشخص (مفيد) فجعله بطلاً لروايته، إلا أنّ القصّة بدلالاتها وتفاصيلها تُعدّ باباً من أبواب الدراسة النفسيّة التي تدفع بالطفل إلى التفلّت من قيود أسرته ومجتمعه، والتّفاصيل الصغيرة التي سردها الروائيّ بدقّةٍ بالغةٍ تحمل في كلّ صفحاتها مفتاحاً يبدّد نشوء جيل عنيف مشاكس، فضلاً عن مفاتيح أخرى، لم نتطرّق إليها في دراستنا.

تجسّد «نهاية رجل شجاع» صورة الطفل المعنّف الذي تلقّى القسوة في مجتمعه، بدءاً بالأسرة حيث الإختلال العاطفي، فلم تستطع الأم الحنون أن تعوّض بلطفها وتضحياتها قسوة الوالد وعدم تسامحه، ثمّ في المدرسة حيث المعلّم الذي نفّره من الصفّ وكرّهه العلم، إلى أتراب عزفوا بقيثارته لحن الشقاء والشّغب، وأخيرًا مع أهل الضيعة حيث المختار الظالم، والمتبارين في عرض اقتراحاتهم لتعذيبه. كلّ ذلك مثّل انعدام الدفء العاطفي، فانعكس بجلاء في ظهور حالات القلق عنده وفي نوبات الغضب، اختتمها بقطع ذيل حمار جاره.

السّلطة الأبويّة، والمجتمع الذكوري، تُحتسب ماهيّة المجتمعات العربيّة إلى حدّ بعيد، على الرغم من التطوّر الذي تشهده المنطقة، والتّشبّه بالغرب الذي قضى على الكثير من ملامح الهويّة العربيّة.

إلى جانب السلطة الأبويّة، والقمع والقهر وسوء التعاطي الذي يحيط بالعلاقة بين الأهل والأبناء، يلفت في الرواية إلى التفكّك الأسري المجسّد بعلاقة غير متكافئة بين الوالديْن، فالأمّ خاضعة – كما الأولاد– لسلطة الوالد. وإن تخلّصت الأمّ، في بعض المجتمعات من العبوديّة، إلا أنّها أخفقت في الكثير من الحالات من الإمساك بزمام الأمور، فتسلّطت.

فرضت الأسرة على الطفل قيودًا كثيرة وتعليمات متعدّدة، قام بمخالفتها كردّ فعل على الحرمان العاطفي الذي كان يلفّ علاقته بوالده، مع اعترافه غير مرّة بالعاطفة النبيلة التي قدّمتها الأمّ، فلم تستطع أن تسدّ بحنوّها الثغرة التي ولّدتها معاملة والده له، فكسّر القيود الاجتماعيّة، واخترق الأنظمة في البيت والمدرسة، وقام بأعمالٍ ندم عليها فيما بعد، بعد فوات الأوان.

وإذا جعلنا (مفيدًا) نموذجاً للفرد في مجموعة، فإنّ العوامل التي تؤثّر في ذاته، تؤثّر دون شكّ في كلّ فرد، لذا يمكن اعتماد دراسة هذه الحالة كدراسة منهجيّة للطّفل الذي يعيش هذه الحالة، فالقلق الذي عاشه بطل الرواية يُعدّ انعكاساً انفعاليّاً خطيراً، فالقلق هو الإحساس الذي ينتاب الطفل لعزلته وقلّة حيلته في عالم يحفل بالتّوتّر والعدوانيّة، وإنّ القلق استجابة اِنفعاليّة تكون موجّهة إلى المكوّنات الأساسيّة للشّخصيّة، يقوم الفرد إذّاك بردّ فعل سلبيّ نتيجة ما تلقّاه.

المصادر والمراجع

- أيوب، نبيل، (٢٠١١)، *نص القارئ المختلف، (٢) وسيميائية الخطاب النقدي*، ط١، مكتبة لبنان ناشرون.
- حجازي، مصطفى، (٢٠١٣)، *التّخلّف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية المقهور*، المركز الثقافيّ العربيّ.
- الزغلول، عماد عبد الرحيم، (٢٠١٣)، *نظريات التعلم*، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- سليم، مريم، (٢٠٠٢)، *علم نفس النمو*، ط ١، بيروت: دار النهضة العربية.
- طنوس، جان، (٢٠٠٣)، *المازوشيّة في أدب توفيق يوسف عواد*، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه، الجامعة اللبنانية.
- عبد المعطي، حسن مصطفى، قناوي، هدى محمد، (٢٠٠٠)، *علم نفس النمو*، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- فرويد، سيغموند، (١٩٨٦)، *مختصر التحليل النفسي*، ترجمة جورج طرابيشي، ط ٢، بيروت: دار الطليعة.
- القائمي، علي، (١٩٩٤)، *دور الأب في التربية، ط١*، بيروت: دار النبلاء.
- القائمي، علي، (٢٠٠٥)، *دور الأمّ في التربية*، ط ٥، بيروت: دار النبلاء.
- قنطار، فايز ، (١٩٩٢)، *الأمومة*، كتاب صادر عن مجلة عالم المعرفة الكويتية.
- كريمي فرد، غلامرضا، خليلي، بروين، باوان بوري، مسعود، (٢٠٢١)، *دراسة رواية «لعبة النسيان» لمحمد برادة في ضوء نظرية سيغموند فرويد النفسية*، مجلة دراسات في السردانية العربيّة، السنة ٢، العدد ٤، صص ١١١-١٣٩.
- محمد، محمود مندوه، (٢٠١١)، *نظريات التعلم*. الرياض: مكتبة الرشد.
- الموسى، أنور، (٢٠١١)، *علم الاجتماع الأدبي منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد*، بيروت: دار النهضة العربية.
- الموسى، أنور عبد الحميد، (٢٠١١)، *علم النفس الأدبي*، ط ١، بيروت: دار النهضة العربية.
- مينه، حنّا، (٢٠٠٧)، *نهاية رجل شجاع، ط ٥*، بيروت: دار الآداب.
- ويتمر، باربرا، (٢٠٠٧)، *الأنماط الثقافية للعنف*، ترجمة ممدوح يوسف عمران، كتاب عالم المعرفة، الكويت: مجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب.
- ياسين، عطوف، (١٩٨١)، *مدخل في علم النفس الاجتماعي*، بيروت: دار النهار للنشر.
- يونغ، كارل جوستاف، (١٩٩٧)، *علم النفس التحليلي*، ترجمة نهاد خيّاطة، ط ٢، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية.

المصادر الإلكترونية

- فضل الله، محمّد حسين، (٢٠١٣/١٢/٢١)، *تربية الطفل بالضرب*، المجلّة الالكترونيّة «بيّنات»، www.bayynat.org.lb

References

- Ayoub, Nabil, (٢٠١١), *The Text of the Different Reader and the Semiotics of Critical Discourse*. Library of Lebanon Publishers.
- Hijazi, Mustafa, (٢٠١٣), *Social Underdevelopment: An Introduction to the Psychology of the Oppressed*.The Arab Cultural Center
- Al Zaghloul, Emad Abdel Rahim, (٢٠١٣), *Learning Theories*. Amman: Dar Al-Shorouk for Publication and Distribution.
- Salim, Maryam, (٢٠٠٢), *Developmental Psychology*. Beirut: Arab Renaissance House.
- Tannous, Jean, (٢٠٠٣), *Masochism in the Literature of Tawfiq Youssef Awwad*. A Ph.D. thesis.
- Abdel-Moati, Hassan Mostafa, Kenawy, Hoda Mohamed, (٢٠٠٠), *Developmental Psychology*. Cairo: Dar Quba for printing, publishing and distribution.
- Freud, Sigmund, (١٩٨٦). *Brief Psychoanalysis*. Translated by George Tarabishi, (Edition: 2th), Beirut: Dar Al-Tali'ah.
- Al-Qaimi, Ali, (١٩٩٤), *The Role of the Father in Education*. Beirut: Dar Al-Nubalaa.
- Al-Qaimi, Ali, (٢٠٠٥), The Mother's Role in Education. 5th Edition. Beirut: Dar Al-Nubala'.
- Kuntar, Fayez, (١٩٩٢), *Motherhood*. the Kuwaiti Journal of Knowledge World.
- Karimi Fard, Glamarda, Khalili, Broin, Bawan Buri, Masoud, (٢٠٢١), Studying the novel “The Game of Oblivion” by Muhammad Barrada in the light of Sigmund Freud’s psychological theory. *Journal of Studies in Arabic Narration* , Year ٢, Issue ٤, pp. .١٣٩-١١١

- Mohamed, Mahmoud Mandoh, (٢٠١١), *Learning Theories*. Riyadh: Al-Rushd Library.
- Al-Mousa, Anwar, (٢٠١١AD), *Literary Sociology: A Sociological Approach to Reading and Criticism*. Beirut: Arab Renaissance House.
- Al-Mousa, Anwar Abdel-Hamid, (٢٠١١), *Literary Psychology*. Beirut: Arab Renaissance House.
- Minna, Hanna, (٢٠٠٧), The End of a Brave Man. 5th Edition. Beirut: Dar Al-Adab.
- Whitmer, Barbara, (٢٠٠٧), *Cultural Patterns of Violence*. Translated by Mamdouh Yousef Omran. National Council for Culture, Arts and Letters.
- Yassin, Atouf, (١٩٨١), *Introduction to Social Psychology*. Beirut: An-Nahar Publishing House.
- Jung, Carl Gustav, (١٩٩٧), Analytical Psychology. Translated by Nihad Khayata. Syria: Dar Al-Hiwar for Publishing and Distribution, Lattakia.

Electronic sources

- 1. Fadlallah, Muhammad Hussein, (٢٠١٣/١٢/٢١), raising a child by beating, the electronic magazine "Evidence", www.bayynat.org.lb

مطالعات روایت‌شناسی عربی

شاپا چاپی: ۷۷۴۰-۲۶۷۶ شاپا الکترونیک:۰۱۷۹-۲۷۱۷

تأثیر دوران کودکی و روابط خانوادگی مفید الوحش در رفتار او در رمان «نهایة رجل شجاع» اثر نویسنده سوری حنّا مینه (بررسی روانشناختی و تحلیلی)

حسین مهتدی[1*] ، ردینة جابر[2] ، خلیل أبوجهجه[3]

وصول: ۱۴۰۱/۹/۱۱
پذیرش: ۱۴۰۱/۱۲/۱

چکیده

رمان «نهایة رجل شجاع» با توجه به تأثیر فراوانی که تربیت خشن بر روح و روان کودکان، علاوه بر تأثیر جامعه و هم‌سن وسالان بر آنان می‌گذارد، صحنه‌ای پربار برای تحقیق درباره موضوع کودکی و تأثیر آن بر شخصیت فرد است. روانشناختی رمان «نهایة رجل شجاع» اثر حنّا مینه از دو جهت اهمیّت دارد: از یک طرف نویسندهٔ رمان که از سرآمدان رمان‌نویسی معاصر عرب است و از طرف دیگر تمرکز داستان بر اهمیت تأثیر زندگی کودک در ساختن شخصیت مرد است؛ به‌همین‌خاطر این پژوهش به بررسی تأثیر دوران کودکی قهرمان داستان «مفید الوحش» در شخصیت بزرگسالی او می‌پردازد. سؤال اصلی این پژوهش عبارت است از: مهمترین عوامل محیطی موثر بر روند رشد شخصیت مفید الوحش کدامند؟ برای پاسخ به این سؤال، پژوهش حاضر به بررسی نقش پدر و مادر در دستیابی به هویت شخصیت کودک و همچنین به نقش معلم و همسالان و مردم روستا به‌عنوان افراد جامعه در ترسیم ویژگی‌های شخصیت کودک می‌پردازد. مهمترین نتایج این مقاله عبارتند از: رمان «نهایة رجل شجاع» تصویر کودکِ آزار دیده‌ای را ترسیم می‌کند که دردها و رنج‌هایی را از جامعهٔ خود متحمل شده است. نخستین آزارها را به‌خاطر اختلال عاطفی از خانواده دریافت می‌کند؛ ولی مادر مهربانش نمی‌تواند با لطف و محبتش سنگدلی و عدم گذشت پدرش را جبران کند. دومین عامل محیطی تأثیرگذار بر شخصیت مفید الوحش مدرسه است جایی که معلم او را از کلاس می‌راند و او را از علم و دانش متنفر می‌کند؛ سپس همسالانش آهنگ بدبختی و شورش را در او می‌نواختند و در نهایت مردم روستا که در آزار و اذیت او با یکدیگر رقابت می‌کردند. شخصیت مفید الوحش در این رمان بیانگر شخصیت مردان زیادی است که در چنین فضایی زندگی کردند و تربیتی سرکوبگرانه داشتند و بازتابی منفی در جامعه برجای گذاشت. درحقیقت رفتار مفید الوحش قهرمان داستان که همواره به‌دنبال مشکلات است بازتاب طبیعی تربیتی است که او دریافت کرده است تربیتی که بر پایهٔ ظلم پدر در جامعهٔ مردسالار شرقی بنا شده است جامعه ای که مرد بالاترین نقش را دارد و آغوش مهربان مادر هیچ جایگاهی جز اشک ریختن ندارد. از آنجا که این پژوهش به بررسی تأثیر دوران کودکی در تشکیل شخصیت فرد می‌پردازد از شیوهٔ روانشناختی – تحلیلی بهره گرفته شده است.

واژگان کلیدی: رمان، نقد روانشناختی، نهایة رجل شجاع، حنّا مینه.

۱. نویسنده مسئول: دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه خلیج فارس، بوشهر، ایران؛ *mohtadi@pgu.ac.ir*

۲. دانش‌آموخته کارشناسی ارشد زبان و ادبیات عربی، دانشگاه لبنان، بیروت- لبنان *Rod.jaberisi@gmail.com*

۳. استاد گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه لبنان، بیروت، لبنان *Kaboujahjah@ul.edu.lb*

CC BY NC

ناشر: دانشگاه خوارزمی با همکاری انجمن ایرانی زبان وادبیات عربی

حق مولف© نویسندگان